التقديم والتأخير في القرآن الكريم

دراسة أسلوبية- نماذج وتطبيقات

بحث مقدم من

د/ فادى محمود محمد الرفاعى

مدرس التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين القاهرة.

التقديم والتأخير في القرآن الكريم دراسة أسلوبية- نماذج وتطبيقات

فادى محمود محمد الرفاعى.

قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، القاهرة، مصر.

الاميل الإلكتروني: fadiAl-Rlfai.2011@azhar.edu.eg

الملخص:

لقد شرف الله تعالى اللغة العربية وخصها بالعديد من المميزات، ولعل أهمها كونها اللغة التي نزل بها خاتمة الكتب السماوية، وهى إلى ذلك تمتاز بتنظيم تركيبي عجيب، جعل نظامها اللغوي فريدا من نوعه.

وكانت ألفاظه بليغة وبلغت القمة في الأداء، وحازت السبق في البلاغة، وتضمنت في طياتها الكثير من المعاني بصيغ متعددة، قَل أن تجد لها نظيراً أو مثيلاً في أي كتاب آخر.

وتهدف الدراسة إلى إبراز أساليب القرآن البلاغية المتعددة، وكيف جاءت فى هذا الكتاب المعجز.

وقد أنبنى البحث على مقدمة، وتمهيد، ومبحثين كان الأول منها فيما يجب تقديم هو لو تأخر لفسد معناه.(نماذج).والمبحث الثاني فيما يجوز تقديم هو لو تأخر لم يفسد معناه.(نماذج) ثم الخاتمة وتحتوى على أهم النتائج والتوصيات، ثم الفهارس.

الكلمات المفتاحية: تعريف التقديم والتأخير، أهمية التقديم والتأخير، أسباب التقديم ، أحوال المعاني، ما يجب تقديمه، ما يجوز تقديمه، الخاتمة.

Presentation and delay in the Holy Quran stylistic study - models and applications

Fady Mahmoud Mohammed Al-Rifai.
Department of Interpretation and Qur'anic Sciences, Faculty of Religion Origins, Al-Azhar University, Cairo, Egypt.
E-mail: Al-RIfai.2011@azhar.edu.egfadi

Abstract:
God has honored the Arabic language and singled it out with many advantages, perhaps the most important of which is that it is the language in which the conclusion of the heavenly books came down, and it is also characterized by a strange compositional organization, which made its linguistic system unique.
His words were eloquent and reached the top of the performance, and she took the lead in rhetoric, and included many meanings in multiple formats, less like any other book.
The study aims to highlight the Qur'an's many rhetorical methods and how it came in this miraculous book.
The research was based on an introduction, a prelude, and two researches, the first of which was what should be presented if it had been delayed, would have spoiled its meaning. The second research on what may be presented is if it is delayed and does not spoil its meaning. (models) and then the conclusion contains the most important results and recommendations, then indexes.

Keywords: Definition of submission and delay, importance of submission and delay, reasons for submission, conditions of meaning, what to offer, what may be offered, conclusion.

مقدمة

"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا، قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا، مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا، وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا"(١)، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله ربه شاهدا ومبشرا ونذيرا، آثره ربه –عز وجل– بجوامع الكلم، فجعل القرآن له خلقا، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الطيّبين.

أما بعد:

فإن أهم المهمّات وأولى ما تُعمر به الأوقات، الاشتغال والعناية بكتاب الله حفظاً وتلاوة وتدبّراً وتعلّماً وتعليماً وتأليفاً.

وكتاب الله أحسن الحديث وأصدق القول، وقد وصفه الله بكونه "عظيماً"(٢) و"حكيماً"(٣)، و"مبيناً"(٤) و"نوراً"(٥) و"هدى"(٦)، وغير ذلك من الأوصاف.

وقد تكفّل الله تعالى بحفظ كتابه الكريم فقال عز من قائل"إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"(٧).

---

(١) سورة الكهف الآيات (١– ٣).

(٢) فى قوله تعالى"وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ" سورة الحجر الآية (٨٧).

(٣) فى قوله تعالى" الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ"سورة يونس الآية (١).

(٤) فى قوله تعالى" الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ" سورة يوسف الآية (١).

(٥) فى قوله تعالى" يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا"سورة يونس الآية (١٧٤).

(٦) فى قوله تعالى" ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ" سورة البقرة الآية (٢).

(٧) سورة الحجر الآية (٩).

وشرف الله تعالى اللغة العربية وخصها بالعديد من المميزات، ولعل أهمها كونها اللغة التى نزل بها خاتمة الكتب السماوية، وهى إلى ذلك تمتاز بتنظيم تركيبى عجيب، جعل نظامها اللغوى فريدا من نوعه.

وكانت ألفاظه بليغة وبلغت القمة في الأداء، وحازت السبق في البلاغة، وتضمنت في طياتها الكثير من المعانى بصيغ متعددة، قَل أن تجد لها نظيراً أو مثيلاً في أى كتاب آخر.

ومَن له أدنى تعقل يدرك أن الإعجاز الواقع فى القرآن الكريم يشمل اللفظ والمعنى، مع تناسب تام دون انفصال أحدهما عن الآخر، والألفاظ تابعة للمعانى.

وقد بلغ القرآن الكريم في هذا الفن الذروة في وضع الكلمات الوضع الذى اختص بها، ومن ثَمّ تستحقه في التعبير، بحيث تستقر في موضعها اللائق بها.

ومن المسلم به أن الكلام يتألف من كلمات أو أجزاء، وليس من الممكن النطق بأجزاء أى كلام دفعة واحدة. من أجل ذلك كان لا بد عند النطق بالكلام من تقديم بعضه وتأخير بعضه الآخر.وليس شيء من أجزاء الكلام في حد ذاته أولى بالتقدم من الآخ،لأن جميع الألفاظ من حيث هى ألفاظ تشترك فى درجة الاعتبا،هذا بعد مراعاة ما تجب له الصدارة في الكلام.

فإذا كان لدى البليغ أو الفصيح معنى يريد الدلالة عليه "ولو على سبيل الإشارة، وهذا المعنى يمكن استفادته من تقديم عنصر من عناصر جملته على عنصر آخر من عناصرها فعل ذلك، ما لم يكن ممتنعا في قواعد اللغة العربية وضوابطها، حتى العناصر المتكافئة في المرتبة كالنعوت فيما بينها،

وكالمعطوفات المتعددات التي تعطف بالواو التي هى لمطلق الجمع، ولا تقتضي ترتيبا ولا تعقيبا، وكألفاظ التوكيد المعنوي، فإنه يهتم بأن يقدم ويؤخر برؤى بلاغية أدبية وفكرية متى انقدحت لديه فكرة مناسبة، يمكن الدلالة عليها بأسلوب التقديم والتأخير.

وفي مجال ترتيب عناصر الجمل في الكلام تظهر براعة كبار البلغاء والأدباء، وتتفاوت مراتبهم، وفوق كل القمم ترتقي جوانب الإعجاز القرآني في رصف عناصر الجملة، وترتيبها، ورصف عناصر الجمل وترتيبها، كما ترتقي في كل مجال فكري وبلاغي"[1].

ولذلك استعنت بالله تعالى وأردت أن أخوض في غمار هذه الناحية وأكتب قدر الاستطاعة، وسميت هذا البحث " التقديم والتأخير في القرآن الكريم دراسة أسلوبية– نماذج وتطبيقات ".

ونظرا لما يحويه هذا الموضوع من أهمية عظمى، أردت أن ألقى الضوء على بعض الجوانب المتعلقة به.

أسباب اختيار الموضوع:

تكمن أسباب اختيار الموضوع فى عدة جوانب من أهمها:

١ – خدمة القرآن الكريم على الوجه الأمثل في هذا الجانب.

٢ – بيان حقيقة التقديم والتأخير ومفهومه الصحيح حتى يفهم القرآن الكريم على الوجه اللائق والذى حاز به السبق.

(١) البلاغة العربية (١/ ٣٩٠).

٣ – حاجة الباحثين والدارسين فى الدراسات القرآنية إلى هذا العلم وما يتصل به من مسائل فى غاية الأهمية.

وقد قسمته إلى مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وفهارس.

على النحو التالى:

المقدمة

وتتضمن:

١–أسباب اختيار الموضوع.

٢–خطة البحث.

التمهيد: ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: تعريف التقديم والتأخير.

المطلب الثانى: أهمية التقديم والتأخير.

المطلب الثالث: أسباب التقديم والتأخير.

المطلب الرابع : أحوال المعانى.

المبحث الأول: ما يجب تقديمه ولو تأخر لفسد معناه.(نماذج).

المبحث الثانى: ما يجوز تقديمه ولو تأخر لم يفسد معناه.(نماذج).

الخاتمة: وتحتوى على أهم النتائج والتوصيات.

الفهارس: وتتضمن:

فهرس المراجع.

فهرس الموضوعات.

كتبه:

دكتور فادى محمود محمد الرفاعى.

مدرس التفسير وعلوم القرآن كلية أصول الدين القاهرة.

المطلب الأول: تعريف التقديم والتأخير.

التقديم: "قدم: القَدَمُ: ما يطأ عليه الإنسان من لدن الرسغ فما فوقه. والقُدْمَة والقَدَمُ أيضاً: السابقة في الأمر، وقوله تعالى "لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ"[١]، أى: سبق لهم عند الله خير، وللكافرين قَدَمُ شر"[٢].

و"قَدَمَ بالفتح يَقْدُمُ قَدْماً، أى: تَقَدَّمَ، قال الله تعالى (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يوم القيامةِ فأوردَهُم النارَ)" [٣] و" تقدّمه وتقدّم عليه واستقدم"[٤].

و"هو من (قدم) و (قدمت كذا فلانا) : تقدمته و (قدمت بكذا إلى فلان) : أعلمته قبل وقت الحاجة إلى فعله وقبل أن دهمه الأمر"[٥].

من خلال هذه النصوص يعلم أن مادة قدم تأتى على معان عديدة، وهى: القَدم، والسبق إلى الشيء، والتقدم، والعلم بالشيء قبل حلول وقته.

والمقصود به هنا تقديم ما حقه التأخير في الترتيب الطبيعي لأجزاء الجملة.

---

(١) سورة يونس الآية (٢).

(٢) العين (١٢٢/٥) باب القاف والدال والميم معهما.

(٣) الصحاح (٢٠٠٦/٥) مادة " قدم" ، والآية (٩٨) سورة هود.

(٤) أساس البلاغة (٢/ ٥٨) مادة " قدم".

(٥) الكليات (١/ ٢٥٧) مادة "التقديم"، والدهم كما ورد"الدَّالُ وَالْهَاءُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى غِشْيَانِ الشَّيْءِ فِي ظَلَامٍ، ثُمَّ يَتَفَرَّعُ فَيَسْتَوِي الظَّلَامُ وَغَيْرُهُ يُقَالُ: مَرَّ دَهْمٌ مِنَ اللَّيْلِ، أَيْ: طَائِفَةٌ" معجم مقاييس اللغة (٢/ ٣٠٧) مادة (دهم).

التأخير: "الْهَمْزَةُ وَالْخَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ إِلَيْهِ تَرْجِعُ فُرُوعُهُ، وَهُوَ خِلَافُ التَّقَدُّمِ. وَهَذَا قِيَاسٌ أَخَذْنَاهُ عَنِ الْخَلِيلِ[1] فَإِنَّهُ قَالَ: الْآخِرُ نَقِيضُ الْمُتَقَدِّمِ. وَالْأُخُرُ نَقِيضُ الْقُدُمِ، تَقُولُ مَضَى قُدُمًا

وَتَأَخَّرَ أُخُرًا. وَقَالَ: وَآخِرَةُ الرَّحْلِ وَقَادِمَتُهُ وَمُؤَخَّرُ الرَّحْلِ وَمُقَدَّمُهُ"[2].

والتأخر نقيض التقدم، و"مؤخر مفرد: اسم فاعل من أخر"[3].

وهو نقل الكلمة من مكانها إلى مكان آخر بعدها.

وبالجملة "نقل الشيء من مكانه إلى ما بعده"[4].

والتقديم والتأخير في اللغة متناقضان، فيقصد بالأول وضع الشيء أمام غيره، وقد كان خلفه، ويعنى بالثانى وضع الشيء خلف غيره، وقد كان أمامه.

---

(1) أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي ويقال: الفرهودي الأزدي اليحمدي؛ كان إماماً في علم النحو، وهو الذي استنبط علم العروض وأخرجه إلى الوجود وحصر أقسامه في خمس دوائر يستخرج منها خمسة عشر بحراً، أخذ علم النحو عن أبي عمرو بن العلاء، أخذ النحو عنه سيبويه والأصمعي والنضر بن شميل،كان الخليل رجلاً صالحاً عاقلاً حليماً وقوراً. مات: سنة بضع وستين ومائة. وفيات الأعيان (٢/٢٤٤)، تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين (١/ ١٢٢)، سير أعلام النبلاء(٧/٤٢٩).

(2) معجم مقاييس اللغة (١/ ٧٠) مادة (أخر).

(3) معجم اللغة العربية المعاصرة (١/ ٧٢) مادة (أخر).

(4) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون (١/ ١٨٢).

وعليه فالمقصود بمركب التقديم والتأخير: التغيير في الترتيب الطبيعي لأجزاء الجملة، لغرض بلاغي كزيادة الاهتمام أو القصر.

وبعبارة أخرى مخالفة عناصر التركيب ترتيبها الأصلى في السياق، فيتقدم ما الأصل فيه أن يتأخر، ويتأخر ما الأصل فيه أن يتقدم.

المطلب الثانى: أهمية التقديم والتأخير.

من المعلوم أن الألفاظ قوالب المعاني الواردة فيها وتابعة لها، ومن ثَم يجب أن تكون فى الترتيب الوضعي بحسب ترتيبها الطبيعي، ومن البين لكل متدبر أن لكلّ عنصر من عناصر الجملة في اللّسان العربيّ موقعاً في ترتيب بناء الجملة، وأن رتبة المسند إليه في السياق التقديم؛ إذ هو المحكوم عليه، ورتبة المسند التأخير، إذ هو المحكوم به، "وما عداهما فتوابع ومتعلقات تأتي تالية لهما في الرتبة.

ولكن قد يعرض لبعض الكلم من المزايا ما يدعو إلى تقديمه، وإن كان حقه التأخير، فيكون من الحسن تغيير هذا النظام ليكون المقدم مشيرا إلى الغرض الذي يراد، ومترجما عما يقصد به"[1].

ويمكن أن نحدد معالم المراتب الطبيعية للعناصر التى وردت عليها الجملتان: الجملة الفعلية، والجملة الاسمية في اللغة العربية، وذلك" اتباعا لما نص عليه علماء العربية في بعضها، واستنادا إلى أهمية كل عنصر من عناصر الجملة في البيان، وأولويته في ترتيب المعاني، مع ملاحظة أذواق

(1) علوم البلاغة البيان، المعاني، البديع (١/ ١٠٠).

فصحاء وبلغاء الناطقين العرب في ترتيب عناصر جملهم التي يصوغونها في كلامهم"[١].

ولذلك يجب إدراك العلاقة بين مفردات الجملة بما يخدم المعنى من حيث التقديم والتأخير وقت وقوعه.

وهذا الفن من أهم مباحث علم المعانى[٢]، والذى يبحث فى بناء الجُمل، وصياغة العبارة.

وبعد فإذا تمهد لك أيها القارىء فاعلم أن المزايا والأهمية التى يمكن القول بأن التقديم سوالتأخير قد حازها تتمثل في ما قاله العلامة عبد القاهر الجرجانى[٣] في دلائل الإعجاز:" إن هذا التقديم كثير الفوائد، جم المحاسن، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا

---

(١) البلاغة العربية (١/ ٣٥١).

(٢) هو: قواعد يعرف بها كيفية مطابقة الكلام مقتضى الحال حتى يكون وفق الغرض الذي سيق له، فبه نحترز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، فنعرف السبب الذي يدعو إلى التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والإيجاز حينا والإطناب آخر، والفصل والوصل . علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع» (١/ ٤١).

(٣) هو: الجرجاني أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن شيخ العربية، وكان شافعيا، عالما، أشعريا، ذا نسك ودين. وكان من كبار أئمة العربية والبيان، صنف المغني في شرح الإيضاح، المقتصد في شرحه، إعجاز القرآن الكبير والصغير، الجمل، العوامل المائة، العمدة في التصريف، وغير ذلك. توفي: سنة إحدى وسبعين وأربع مائة وقيل: سنة أربع وسبعين. سير أعلام النبلاء (٤٣٢/١٨)، بغية الوعاة (٢/ ١٠٦)، فوات الوفيات (٢/ ٢٦٩).

يروقك سجعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، إن قدم فيه شيء وحول اللفظ من مكان إلى مكان"[١].

وهو أحد أساليب البلاغة التى لا يمكن تذوقها بدونه، فإنهم قد أتوا به "دلالة على تمكنهم في الفصاحة وملكتهم في الكلام وانقياده لهم وله في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق"[٢].

وتكمن أهميته في الأسلوب القرآنى في غاية الوضوح إذ إن كل تقديم وتأخير فيه وفق حكمة بالغة، وقدرة فائقة أعجزت الأعداء، وأخرست الفصحاء والبلغاء، ليس فيه ما يفسد المعنى، وإنما حاز الجلى الفصيح، ولا تجد ما يقوم مقامه، قد اقتضاه المعنى بما يؤثر في النفوس والعقول.

قال في الدلائل:" واعلم أنه إذا كان بينا في الشيء أنه لا يحتمل إلا الوجه الذي هو عليه حتى لا يشكل، وحتى لا يحتاج في العلم بأن ذلك حقه وأنه الصواب، إلى فكر وروية فلا مزية, وإنما تكون المزية ويجب الفضل إذا احتمل في ظاهر الحال غير الوجه الذي جاء عليه وجها آخر، ثم رأيت النفس تنبو عن ذلك الوجه الآخر، ورأيت للذي جاء عليه حسنا وقبولا تعدمهما إذا أنت تركته إلى الثاني.

ومثال ذلك قوله تعالى"وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ"[٣] ، ليس بخاف أن لتقديم الشركاء حسنا وروعة ومأخذا من القلوب، أنت لا تجد شيئا منه إن أنت أخرت فقلت: "وجعلوا الجن شركاء الله"، وأنك ترى حالك حال من نقل عن الصورة المبهجة والمنظر الرائق والحسن الباهر، إلى الشيء الغفل الذي لا

---

(١) دلائل الإعجاز ص (١٠٦).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٣/ ٢٣٣).

(٣) سورة الأنعام الآية (١٠٠).

تحلى منه بكثير طائل، ولا تصير النفس به إلى حاصل. والسبب في أن كان ذلك كذلك، هو أن للتقديم فائدة شريفة ومعنى جليلا لا سبيل إليه مع التأخير.

بيانه، أنا وإن كنا نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع الله تعالى، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم، فإن تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى، ويفيد معه معنى آخر، وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك، لا من الجن ولا غير الجن.

وإذا أخر فقيل: "جعلوا الجن شركاء الله"، لم يفد ذلك، ولم يكن فيه شيء أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى، فأما إنكار أن يعبد مع الله غيره، وأن يكون له شريك من الجن وغير الجن، فلا يكون في اللفظ مع تأخير "الشركاء" دليل عليه"[1].

ويمكن القول بأنه مظهر من مظاهر شجاعة اللغة العربية، ففيه إقدام على مخالفة الترتيب لقرينة من قرائن المعنى المراد من غير لبس، اعتماداً على قرائن أخرى، ووصولاً بالعبارة إلى دلالات تجعلها قوية المبنى والمعنى.

وكذلك فهذا الفن تتبارى فيه الأساليب وتظهر المواهب وتُعبر القدرات، وهو دلالة على التمكن فى الفصاحة، وحسن التصرف فى الكلام ووضعه الوضع الذى يقتضيه المعنى المقصود.

وعلى هذا فتقديم جزء من الكلام أو تأخيره لا يرد اعتباطا في نظم الكلام ، وإنما يكون عملا مقصودا يقتضيه غرض بلاغي كما هو بين، أو داع من الدواعي التى تحتمه.

---

(1) دلائل الإعجاز (١/ ٢٨٦- ٢٨٧).

المطلب الثالث: أسباب التقديم.

بداية أقول بأن العلماء حينما تحدثوا عن ذلك العلم شرطوا له شروطا ووضعوا له أصولا، وقيدوا ذلك الفن بقيود ومنها ما يلى:

أحدها: أن يكون أصله التقديم ولا مقتضى للعدول عنه كتقديم الفاعل على المفعول، والمبتدأ على الخبر، وصاحب الحال عليها نحو جاء زيد راكبا.

والثاني: أن يكون في التأخير إخلال ببيان المعنى كقوله تعالى" وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ"[1] ، فإنه لو أخر قوله: " مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ " فلا يفهم أنه منهم.

الثالث: أن يكون في التأخير إخلال بالتناسب فيقدم لمشاكلة الكلام ولرعاية الفاصلة كقوله: " وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ"[2] ، بتقديم " إِيَّاهُ " على " تَعْبُدُونَ " لمشاكلة رءوس الآي.

الرابع: لعظمه والاهتمام به، وذلك أن من عادة العرب الفصحاء إذا أخبرت عن مخبر ما – وأناطت به حكما – وقد يشركه غيره في ذلك الحكم أو فيما أخبر به عنه وقد عطفت أحدهما على الآخر بالواو المقتضية عدم الترتيب – فإنهم مع ذلك إنما يبدءون بالأهم والأولى. قال سيبويه[3]: كأنهم يقدمون

---

(1) سورة غافر الآية (٢٨).

(2) سورة فصلت الآية (٣٧).

(3) هو: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الملقب سيبويه، إمام النحو، حجة العرب، كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو، ولم يوضع فيه مثل كتابه، وذكره الجاحظ يوماً فقال: لم يكتب الناس في النحو كتاباً مثله، وأخذ سيبويه النحو عن الخليل بن أحمد، وعن عيسى ابن عمر ويونس بن حبيب وغيرهم، وأخذ اللغة عن أبي الخطاب المعروف بالأخفش الأكبر وغيره، مات سنة ثمانين ومائة. وفيات الأعيان (٣/ ٤٦٣)، سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٥١)، تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم (١/ ٩٠).

الذي شأنه أهم لهم وهم ببيانه أعنى وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم. انتهى.

قال تعالى: " وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ "[1] ، فبدأ بالصلاة لأنها أهم.

الخامس: أن يكون الخاطر ملتفتا إليه والهمة معقودة به، وذلك كقوله تعالى: "وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ"[2]، بتقديم المجرور على المفعول الأول لأن الإنكار متوجه إلى الجعل لله لا إلى مطلق الجعل.

السادس: أن يكون التقديم لإرادة التبكيت والتعجيب من حال المذكور كتقديم المفعول الثاني على الأول في قوله تعالى: "وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ"[3] ، والأصل" الجن شركاء "، وقدم لأن المقصود التوبيخ وتقديم الشركاء أبلغ في حصوله.

السابع: الاختصاص، وذلك بتقديم المفعول والخبر والظرف والجار والمجرور ونحوها على الفعل كقوله تعالى: "إِيَّاكَ نَعْبُد"[4] ، أى: نخصك بالعبادة فلا نعبد غيرك.

وقوله: " إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ "[5] أى: إن كنتم تخصونه بالعبادة.

والخبر كقوله: "قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ""[6].

---

(1) سورة البقرة الآية (٤٣).

(2) سورة الأنعام الآية (١٠٠).

(3) سورة الأنعام الآية (١٠٠).

(4) سورة الفاتحة الآية (٥).

(5) سورة فصلت الآية (٣٧).

(6) البرهان فى علوم القرآن (٣/ ٢٣٣ – ٢٦٣) باختصار، والآية (٤٦) سورة مريم.

وهكذا تبين لنا مدى اجتهاد العلماء في تأصيل العلوم التى عليها مدار إعجاز القرآن الكريم واللغة العربية وترسيخ قواعد خاصة بها، حتى لا يطعن فيها المستشرقون وغيرهم.

واتضح لنا أن تلك الأسباب قد أبانت عن جمال أسلوب القرآن الكريم وتذوق عباراته، وبيان نظمه الفريد الذى أبهر العقول.

المطلب الرابع : أحوال المعانى.

أستطيع القول بأن الألفاظ تابعة للمعانى لا تنفك عنها بأى حال من الأحوال، وقد وردت في البلاغة على أضرب عديدة، واستقرت عليها وبها أصبح للمعانى وجه امتازت به عن غيرها من أقرانها، وفيما يلى يمكن أن أُجلى تلك الأحوال بعد استقراء كتب البلاغة :

"**الحالة الأولى:** تقدم العلة على معلولها عند القائلين بها، "كتقديم "الْعَزِيزُ "[١] على " الْحَكِيمُ"[٢] لأنه عز فحكم وتقديم "الْعَلِيمُ"[٣] على "الْحَكِيمُ"[٤] لأن الإتقان ناشىء عن العلم"[٥].

الحالة الثانية: التقدم بالذات.

وهذا نحو تقدم الواحد على الاثنين على معنى أن الوحدة لا يمكن تحقق الاثنينية إلا بعد سبقها.

كقوله تعالى: " مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ"[٦] . ونحوه " مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ"[٧] وقوله: "سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ"[٨] وكذلك جميع الأعداد كل مرتبة هي متقدمة على ما فوقها بالذات.

الحالة الثالثة: التقدم بالشرف[٩].

---

(١) سورة الحديد الآية (١).
(٢) سورة الحديد الآية (١).
(٣) سورة يوسف الآية (١٠٠).
(٤) سورة يوسف الآية (١٠٠).
(٥) البرهان (٣/ ٢٤٧).
(٦) سورة النساء جزء من الآية (٣).
(٧) سورة المجادلة الآية (٧).
(٨) سورة الكهف جزء من الآية (٢٢).
(٩) وقد أوصل الإمام الزركشى أنواع الشرف إلى ثمانية أنواع. البرهان (٣/ ٢٥٢-٢٥٣).

وهذا نحو تقدم الأنبياء على الأتباع، والعلماء على الجهال.

وقوله تعالَىَ"الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى"[1].

حيث قدَّم الحر على العبد لَشرفه.

الحالة الرابعة: التقدم بالمكان.

وهذا نحو تقدم الإمام على المأموم، ونحو تقدم من يقرب إلى الحائط دون من تأخر عنه، فمن يلى الحائط فإنه يقال: إنه سابق على من تأخر عنه، وهكذا القول فى غيره من الأمكنة.

الحالة الخامسة: التقدم بالزمان.

وهذا نحو تقدم الشيخ على الشاب، والأب على الابن، فإن الوالد وجد فى زمان لم يوجد فيه الابن، فهذه المعانى كلها عقلية، فما كان منها متقدما على غيره بأحد هذه الاعتبارات كان فى العبارة كذلك إتباعا للمعانى بالألفاظ"[2].

وهذه المعانى ثابتة معروفة عقلا، ولذلك لا يقع فيها تفاوت أو تفنن فى التعبير.

---

(1) سورة البقرة الآية (١٧٨).

(2) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. يحيى بن حمزة بن إبراهيم،الطالبي الملقب بالمؤيد بالله. ت(٧٤٥هـ)(٣٣/٢)، وينظر البرهان فى علوم القرآن (٣/ ٢٣٩) ، ومن الملاحظ أن هذه المعانى كلها عقلية، فما كان منها متقدما على غيره بأحد هذه الاعتبارات كان فى العبارة كذلك إتباعا للمعانى بالألفاظ، إلا أن الحالات الثانية وما بعدها حتى الخامسة من باب الأعيان والذوات .

المبحث الأول: ما يجب تقديمه ولو تأخر لفسد معناه.

أولا : تقديم متعلقات الفعل عليه.

بداية أشير إلى أن الأصل في العامل أن يقدم على المعمول، وقد يعكس ذلك فيقدم المفعول ونحوه من الجار والمجرور والظرف والحال لأغراض ستذكر فيما بعد.

والمقصود من متعلقات الفعل، والفاعل و"المفعول به[١]، والجار والمجرور[٢]، والظرف[٣]، والمفعول المطلق[١]، والمفعول معه[٢]، والمفعول لأجله[٣]، والحال[٤]، والتمييز[٥] في أحوال قليلة ونادرة"[٦].

---

(١) هو: ما وقع عليه فعل الفاعل. والناصب له: إما فعل كـ " ضربت زيداً، وأعطيت زيداً درهما، وأعلمت زيداً عمراً فاضلاً"، أو وصف كـ "جاء الضارب زيداً"، أو مصدر كـ " عجبت من ضربك عمراً".دليل الطالبين لكلام النحويين (٥٣/١).

(٢) حروف الجر: تلك التي تقوم بربط الأسماء بالأسماء كقوله تعالى "مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى" سورة الإسراء الآية (١).

(٣) الظرف كل اسم من أسماء الزمان أو المكان يراد فيه معنى في، وليست في لفظه كقولك قمت اليوم وجلست مكانك لأن معناه قمت في اليوم وجلست في مكانك فإن ظهرت في إلى اللفظ كان ما بعدها اسما صريحا وصار التضمن لـ في تقول سرت في يوم الجمعة وجلست في الكوفة. والظرف على ضربين ظرف زمان وظرف مكان.

ظرف الزمان: واعلم أن الزمان مرور الليل والنهار نحو اليوم والليلة والساعة والشهر والسنة.

والمكان ما استقر فيه أو تصرف عليه وإنما الظرف منه ما كان مبهما غير مختص مما في الفعل دلالة عليه =

فالفعل يلابس هذه الأشياء ولا ينفك عنها "وكثيرا ما يأتي وقد جر وباءه هذا الحشد الهائل، وكله متصل به بوجه من الوجوه، والفعل مسند حتما، فأحوال متعلقات الفعل هي أحوال متعلقات المسند إذا كان فعلا، وقد جعلها

=والمبهم ما لم تكن له أقطار تحصره ولا نهايات تحيط به نحو خلفك وأمامك وقدامك ووراءك وإزاءك وتلقاءك وتجاهك وقربك وقريبا منك وصددك وصقبك تقول جلست عندك وسرت أمامك ووراءك وأنا قريبا منك وزيد دونك ومحمد حيالك فتنصب هذا كله على أنه ظرف والعامل فيه ما قبله من الأفعال المظهرة أو المقدرة وكذلك ما أشبهه". اللمع في العربية (١/٥٥- ٥٦).

(١) هو: المصدر الفضلة المسلط عليه عامل من لفظه كـ "ضربت ضرباً"، أو من معناه كـ "قعدت جلوساً". دليل الطالبين لكلام النحويين (١/٥٤)، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٢/ ١٦٩) .

(٢) هو: اسم، فضلة، تالٍ لواو بمعنى مع، تالية لجملة ذات فعل أو اسم فيه معناه وحروفه، كـ: "سرت والطريق" و: "أنا سائر والنيل".أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (٢/ ٢١٢)، الكافية في علم النحو (١/٢٣).

(٣) هو: المصدر الفضلة المعلل لحدث شاركه وقتاً وفاعلاً وعلامته: صحة وقوعه في جواب لم فعلت؛ كـ "قصدت إجلالا لك "دليل الطالبين لكلام النحويين (١/ ٥٥).

(٤) هو: الوصف الفضلة المسوق لبيان هيئة صاحبه، أو تأكيده، أو تأكيد عامله، أو مضمون جملةٍ قبله كـ "جاءَ زيدٌ راكباً، وجاءَ الناسُ قاطبةً"، (وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا). دليل الطالبين لكلام النحويين (١/ ٥٨)، وهى جزء آية سورةالنساء رقم (٧٩).

(٥) هو: الاسمُ المنصوب المفسّرُ لِمَا آنبهمَ من الذوات. الحدود في علم النحو (١/ ٤٧٦).

(٦) البلاغة العربية (١/ ٣٨١).

البلاغيون بابا مستقلا لكثرة مباحثها فقط؛ لأنها في الواقع فرع من فروع أحوال المسند"[١].

وقد ذكر علماء البلاغة طائفة من الدواعي البلاغية لتقديم ما هو من متعلقات الفعل عن مرتبته التى ورد عليها في أصل الكلام.

ومن هذه الأغراض ما يلى:

١ – رد الخطأ في التعيين كقولك: محمدًا كلمت، ردا على من اعتقد أنك كلمت إنسانا غير محمد، وتقول لتأكيده: محمد كلمت، لا غيره. أو في ظن الاشتراك، نحو: عليا رأيت، أى: وحده، ردا على من اعتقد أنك رأيت عليا ومحمدا. ومن ثم لا يقال: ما محمدا كلمت ولا غيره، لتناقض دلالتى الأول والثاني، ولا أن تعقب الفعل المنفي بإثبات ضده، كقولك: ما محمدًا ضربت، ولكن أكرمته، وقولك: بمحمد مررت، لمن اعتقد أنك مررت بإنسان وأنه غير محمد، وكذا سائر المعمولات،نحو: يوم الجمعة سرت،وفي المسجد صليت، وماشيا جئت. [٢]

وكقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «هَلْ نَكَحْتَ يَا جَابِرُ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «مَاذَا أَبِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا؟» قُلْتُ: لاَ بَلْ ثَيِّبًا، قَالَ «فَهَلَّا جَارِيَةً تُلاَعِبُكَ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبِي قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَتَرَكَ تِسْعَ بَنَاتٍ، كُنَّ لِي تِسْعَ أَخَوَاتٍ،

---

(١) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني. د/محمد محمد أبو موسى (١/ ٣١٧).

(٢) علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع» (١/ ١٠٦).

فَكَرِهْتُ أَنْ أَجْمَعَ إِلَيْهِنَّ جَارِيَةً خَرْقَاءَ مِثْلَهُنَّ، وَلَكِنِ امْرَأَةً تَمْشُطُهُنَّ وَتَقُومُ عَلَيْهِنَّ، قَالَ: «أَصَبْتَ»"[1].

ومن المعلوم أن الزواج بالبكر أو الثيب ليس مما ينكره أحد، وعليه فالهمزة للإنكار، وإنما المقصود أن الرسول عليه الصلاة والسلام يستفهم من جابر[2] رضى الله عنه هل انعقد زواجه ببكر أم ثيب، وعليه فتقديم المفعول به" بكراً" فى معرض الاستفهام على الفعل تزوجت أفاد إثباتاً للزواج أنه قد تم حينئذ، وكذلك إثباتا لرغبة الرسول عليه الصلاة والسلام فى أنه يؤثر أن يكون بالبكر دون الثيب كما هو ملاحظ من خلال النص الكريم، وهو مناط التعيين، ولعل السر فى هذا التخصيص ليكون بين الزوجين كمال الألفة والتآنس فإن الثيب قد تكون معلقة القلب بالزوج السابق.

"وقوله: «هلا بكرا» منصوب بفعل محذوف أى: هلا نكحت بكرا"[3]

---

(1) أخرجه الإمام البخارى ٦٤ – كِتَابُ المَغَازِي. بابُ {إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ} (٥/٩٦) رقم (٤٠٥٢)، والإمام مسلم ١٧ – كِتَابُ الرِّضَاعِ ١٦ – بَابُ اسْتِحْبَابِ نِكَاحِ الْبِكْرِ (٢/ ١٠٨٧) رقم (٥٥).

(2) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن كعب بن سلمة، الإمام الكبير، المجتهد، الحافظ، صاحب رسول الله –صلى الله عليه وسلم – أبو عبد الله، الأنصاري، الخزرجي، المدني، الفقيه. من أهل بيعة الرضوان، روى علما كثيرا عن النبي – صلى الله عليه وسلم – وعن: عمر، وعلي، وأبي بكر، وطائفة.حدث عنه: ابن المسيب، وعطاء بن أبي رباح. توفي: سنة اثنتين وسبعين.سير أعلام النبلاء (١٨٩/٣)، معرفة الصحابة(٥٢٩/٢)،الإصابة(٥٤٥/١).

(3) طرح التثريب في شرح التقريب (٧/ ١٠).

" والهمزة في: أبكرا؟ للاستفهام على سبيل الاستخبار . قوله: (لا) أى: قلت: لا نكحت بكرا، بل نكحت ثيبا. "[1].

٢- التخصيص، وهو لازم للتقديم غالبا بشهادة الاستقراء، وحكم الذوق، ومن ثم قال

المفسرون في قوله تعالى"إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ"[2]، إن المعنى نخصك بالعبادة والاستعانة

ولا نعبد غيرك ولا نستعين به، وفي قوله"لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ"[3] ، أي: لا إلى غيره.

وفي التقديم فائدة أخرى، وهى الاهتمام بشأن المقدم، ومن ثم قدر المحذوف في: باسم الله مؤخرا، أى: باسم الله أفعل كذا، بيانا لاهتمام الموحد بالاسم الكريم وردا على المشركين الذين كانوا يبدءون بأسماء آلهتهم، فيقولون: باسم اللات، أو باسم العزى.

٣ – للاهتمام بالمقدم كقوله تعالى " وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) "[4].

---

(1) عمدة القارى (١٧/ ١٤٧).

(2) سورة الفاتحة الآية (٥).

(3) سورة آل عمران الآية (١٥٨).

(4) سورة االسجدة الآية (٢٣ – ٢٤).

فقوله تعالى: "بِآيَاتِنَا " معمول مقدم على عامله وهو قوله عز وجل " يُوقِنُونَ" وقدم للإشعار بأهمية آيات الله في حياة الإنسان، وبقيمتها العظيمة في رحلة امتحانه وأقرانه فى هذه الحياة.

ومن ثم فالإيقان بها هو الذى "يصحح مسيرتهم ويقوم سلوكهم، وليس الغرض حصر الإيقان بها، فأركان الإيمان التي يجب الإيقان بها لا تقتصر على آيات الله"[١].

وما جاء في تأخير قوله سبحانه {يوقنون} من مراعاة عنصر جمالي تستدعيه رؤوس الآيات.

٤- التبرك به نحو: بسم الله الرحمن الرحيم، فقد تقدم لفظ البسملة هنا على لفظ الجلالة، وهو من باب التبرك به، ولا يعارضه قوله تعالى "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ "[٢] لأن ذلك المقام مقام القراءة، فكان الأمر بها أهم، إذ بالقراءة حفظ المقروء عادة، وذلك هو المقصود من الإنزال.

وكذلك للرد على المشركين الذين كانوا يبدءون بأسماء آلهتهم، فيقولون: باسم اللات، أو باسم العزى.

وهذا ما جلاه صاحب الكشاف حين قال:" فإن قلت: فقد قال: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ"، فقدّم الفعل.

قلت: هناك تقديم الفعل أوقع لأنها أوّل سورة نزلت فكان الأمر بالقراءة أهم"[٣].

---

(١) البلاغة العربية (١/ ٣٨٥).

(٢) سورة العلق الآية (١).

(٣) الكشاف الزمخشرى (١/ ٣).

وأيضا كتقديم اسم الله عز وجل في الأمور ذوات الشأن. ومنه قوله تعالى"شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ"(١) .

٥- الاستلذاذ به نحو قوله تعالى " اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ"(٢).

فقد جاء هنا لفظ السياق مظهراً الاسم الأعظم تعظيماً للمقام إذ إن الله تعالى هو الخالق لكل شيء، فقد ساق- سبحانه- ما يدل على كمال قدرته العليا وعظمته، فهو وحده الخالق لكل شيء في هذا الكون، وهو- عز وجل- المتصرف في كل شيء في هذا الوجود، بحيث لا يخرج شيء عن إذنه ومشيئته المطلقة، ويتولى التصرف فيه كيفما يشاء حسبما تقتضيه الحكمة.

"أى: المحيط بكل شيء قدرة وعلماً الذي نجاهم { خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } فلا يكون شيء أصلاً إلا بخلقه، وهو لا يخلق ما يتوقعون منه خوفاً، ولا يقع لهم عليه حزن. ولما دل هذا على القدرة الشاملة، كان ولا بد معها من العلم الكامل قال: { وَهُوَ } وعبر بأداة الاستعلاء لأنه من أحسن مجزأتها { عَلَى كُلِّ شَيْءٍ } أي: مع القهر والغلبة { وَكِيلٌ } أي حفيظ لجميع ما يريد منه، قيوم لا عجز يلم بساحته ولا غفلة. "(٣).

(١) سورة آل عمران الآية (١٨).
(٢) سورة الزمر الآية (٦٢).
(٣) نظم الدرر (١٦/ ٥٤٣).

٦- موافقة كلام السامع نحو: "محمدا دعوت" في جواب "من دعوت"؟ فيقدم المفعول ليوافق مقابله في كلام السائل وهو "من" الاستفهامية. [١].

٧- ضرورة الشعر نحو:

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه ... وليس إلى داعي الندى بسريع[٢].

٨- مراعاة نظم الكلام نحو"خُذُوهُ فَغُلُّوهُ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ"[٣].

والشاهد في الآية الثانية، حيث قدم المفعول فى قوله تعالى" الْجَحِيمَ" على الفعل " صَلُّوهُ" لتتوافق الفاصلتان في الآيتين.

وقوله عز وجل "فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ"[٤].

فقد تقدم المفعول لمكان حسن النظم.

فاقتضى حسن السياق أن يقول: " فَلَا تَقْهَرْ"، و" فَلَا تَنْهَرْ" ؛ ليكون الجميع على نسق واحد في النظم، ولو قال: فلا تقهر اليتيم، فلا تنهر السائل لما كان بتلك الصورة في الحسن.

فالتقديم في مثل هذه المواضع ليس إلا مجرد مراعاة الفاصلة القرآنية.

---

(١) المنهاج الواضح للبلاغة (٢/ ٦٧).

(٢) البيت للأقيشر الأسدي الكوفي الشاعر الأموي. هامش البديع في البديع لابن المعتز (١/ ١٤٠)، وكذلك بتلك النسبة
فى خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادى (٤/ ٤٨٨).

(٣) سورة الحاقة الآية (٣٠ – ٣٢).

(٤) سورة الضحى الآية (٩ – ١١).

٩- أن يكون المقدم محط الإنكار، كما يقول: أبعد طول عشرة فلان تخدع بمواعيده"[١].

ومن هذا القبيل أيضا قوله تعالى"وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)" [٢]

فقد وقع هنا الرد على المخاطب نحو: "قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ" بعد قوله "مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ" ؟ فقد أعاد ذكر المسند مع العلم به من السؤال، لأنه محط الإنكار إذ إن الخطاب مع من ينكر إعادة الإنسان بعد موته.

"أي أورد في شأننا قصة عجيبة في نفس الأمر هي في الغرابة والبعد عن العقول كالمثل وهي إنكار إحيائنا العظام أو قصة عجيبة في زعمه واستبعدها وعدها من قبيل المثل وأنكرها أشد الإنكار وهي إحياؤنا إياها وجعل لنا مثلا ونظيرا من الخلق وقاس قدرتنا على قدرتهم"[٣].

"وجملة "قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ" وهي رميم استئناف جوابا عن سؤال مقدر كأنه قيل: ما هذا المثل الذي ضربه؟ فقيل قال: مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ "[٤].

" وأمر النبيء صلى الله عليه وسلم بأن يقول له يحييها الذي أنشأها أمر بجواب على طريقة الأسلوب الحكيم بحمل استفهام القائل على خلاف مراده

---

(١) علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع» أحمد بن مصطفى المراغي (١/ ١٠٦ – ١٠٨).

(٢) سورة يس الآية (٧٨ – ٧٩).

(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٨١).

(٤) فتح القدير (٤/ ٤٤٠).

لأنه لما قال: من يحي العظام وهي رميم لم يكن قاصدا تطلب تعيين المحيي وإنما أراد الاستحالة، فأجيب جواب من هو متطلب علما. فقيل له: يحييها الذي أنشأها أول مرة.

فلذلك بني الجواب على فعل الإحياء مسندا للمحيي، على أن الجواب صالح لأن يكون إبطالا للنفي المراد من الاستفهام الإنكاري كأنه قيل: بل يحييها الذي أنشأها أول مرة. ولم يبن الجواب على بيان إمكان الإحياء وإنما جعل بيان الإمكان في جعل المسند إليه موصولا لتدل الصلة على الإمكان فيحصل الغرضان، فالموصول هنا إيماء إلى وجه بناء الخبر وهو يحييها، أى:يحييها لأنه أنشأها أول مرة فهو قادر على إنشائها ثاني مرة كما أنشأها أول مرة"[١].

وهذه المتعلقات أقل في الأهمية من ركنى الجملة، ومع ذلك فقد تتقدم عليها، أو على أحدهما.

ونذكر من ذلك صورا عديدة كما يلى:

الصورة الأولى: تقديم المفعول على فعله.

مثل قوله تعالى " إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ"[٢].

فى هذه الآية الكريمة تقدم المفعول على فعله، والأصل نعبد إياك وذلك لما فيه من التخصيص، والأصل تأخير ما حقه التقديم إلا أن التذوق البلاغى لا يحصل إلا بهذا السياق.

فقد دل هذا التقديم على تخصيص الله عز وجل بالعبادة والاستعانة.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٧٥- ٧٦).

(٢) سورة الفاتحة الآية (٥).

"وهو رأى الأكثر من علماء البيان، وذلك لأن المفعول إذا تقدم لزم الاختصاص"(١).

فـ""إياك" مفعول مقدم على "نعبد"، قدم للاختصاص"(٢) " والمعنى نخصك بالعبادة، ونخصك بطلب المعونة"(٣).

ولأجل ذلك تكون العبادة مختصة بالله عز وجل لأجل التقدم في هذا المقام.

والأصل في المفعول به أن يكون متأخرا عن عامله.

ولعل السبب الذى من أجله قدمت العبادة على الاستعانة "لأن تقديم القربة والوسيلة قبل طلب الحاجة أنجح لحصول الطلب، وأسرع لوقوع الإجابة.

ولو قال: «إياك نستعين وإياك نعبد» لكان جائزا، إلا أنه لا يسد ذلك المسد، ولا يقع ذلك الموقع"(٤).

وإذا كان من الجائز أن يتقدم بعض أجزاء الجملة على بعض"فقد حرصت الجملة في القرآن، على أن يكون هذا التقديم، مشيرا إلى مغزى، دالا على هدف، حتى تصبح الآية بتكوينها، تابعة لمنهج نفسى، يتقدم عندها فيها ما تجد النفس تقديمه أفضل من التأخير، فيتقدم مثلا بعض أجزاء الجملة حين يكون المحور الذى يدور عليه الحديث وحده، فيكون هو المقصود والمعنى،

---

(١) الطراز (٢/ ٣٧).
(٢) الدر المصون (١/ ٥٥).
(٣) الكشاف (١/ ١٣).
(٤) علم المعاني عبد العزيز عتيق (١/ ١٤٤).

والنفس يتقدم عندها من يكون هذا شأنه، فلا جرم أن يتقدم في الجملة، كما تقدم في النفس، ويدعو البلاغيون هذا التقديم بالاختصاص"[١].

الصورة الثانية: تقديم خبر المبتدأ عليه.

كما فى قوله تعالى" وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ"[٢].

فإنما قدم قوله"مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ" وهو خبر المبتدأ فى أحد وجهيه، ليدل بذلك على اعتقادهم الخاطىء فى حصانة تلك الحصون ومنعتها، ومبالغة فى شدة وثوقهم بمنعها إياهم، وأنهم لا يبالون معها بأحد، ولا ينال فيهم شىء أبدا.

والأصل أن الاسم بحسب الظاهر أولى بأن يجعل في مرتبة المبتدأ ويجعل وصفه خبرا عنه، فعدل عن ذلك التقديم إشارة إلى أهمية " منعة الحصون عند ظنهم فهى بمحل التقديم في استحضار ظنهم"[٣].

قوله: "مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ" "فيه وجهان، أحدهما: أن يكون" حُصُونُهُمْ " مبتدأ، و" مانِعَتُهُمْ "خبر مقدم. والجملة خبر" أَنَّهُمْ ". لا يقال: لم لا يقال: " مانِعَتُهُمْ " مبتدأ؛ لأنه معرفة. و"حُصُونُهُمْ " خبره. ولا حاجة لتقديم ولا تأخير؛ لأن القصد الإخبار عن الحصون، ولأن الإضافة غير محضة، فهى نكرة. والثاني: أن يكون" مانِعَتُهُمْ " خبر أنهم و" حُصُونُهُمْ " فاعل به. نحو: إن زيدا قائم أبوه، وإن عمرا قائمة جاريته"[٤].

---

(١) من بلاغة القرآن أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي (١/ ٩٠).

(٢) سورة الحشر الآية (٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ٧٠).

(٤) الدر المصون (١٠/ ٢٧٧ – ٢٧٨).

وفى الإتيان بضمير (هم) اسما، وإسناد المنع والحصون إليهم، دلالة بالغة على تقريرهم فى أنفسهم والتأكيد على أنهم فى عزة ومنعة، وقوة عظيمة وبأس شديد، لا يغزون فى دارهم، ولو أخر الخبر هنا لم يعط شيئا من هذه الفوائد أبدا.

فهؤلاء ظنوا أن حصونهم تمنعهم من بأس الله تعالى الشديد.

فإنه إنما قال ذلك، ولم يقل: وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم؛ لأن في تقديم الخبر الذي هو "مانِعَتُهُمْ " على المبتدأ الذي هو " حُصُونُهُمْ" " دليلا على فرط اعتقادهم في حصانتها، وزيادة وثوقهم بمنعها إياهم.

"وتغيير النظم بتقديم الخبر وإسناد الجملة إلى ضميرهم للدلالة على كمال وثوقهم بحصانة حصونهم واعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالى معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع في معازتهم"(١).

قال صاحب نظم الدرر:" ودل على قوة ظنهم وثباته بالجملة الاسمية فقال: " مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ " أى: ثابت لها المنع ولهم الامتناع، قالوا: وفي تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم، وفي جعل ضميرهم اسم (إن) وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عز ومنعة لا مطمع معها في معازّتهم، ودل على ضعف عقولهم بأن عبر عن جنده باسمه وباسمه الأعظم فقال: " مِنَ اللَّهِ" أى: الملك

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢٢٥)، و"عازَّ الرجلُ إبلَه وَغَنَمَهُ مُعازَّةً إذا كَانَتْ مِراضاً لَا تَقْدِرُ أَن تَرْعَى فاحْتَشَّ لَهَا ولَقَّمَها، وَلَا تَكُونُ المُعازَّةُ إلا فِي الْمَالِ وَلَمْ نَسْمَعْ فِي مَصْدَرِهِ عِزازاً. وعَزَّه يَعُزُّه عَزًّا: قَهَرَهُ وَغَلَبَهُ" لسان العرب (٥/ ٣٧٧- ٣٧٨) مادة (عزز) .

الأعظم الذي لا عز إلا له وأنتم جنده، لا تقاتلون إلا فيه وبه، بأسكم من بأسه، فقد اجتمع الظنان على شيء واحد "[1].

وكان من الأجدر أن يقول: وظنوا أن لا يخرجوا. إذ إن الكلام على خروجهم، وهو المذكور فى قوله تعالى: "هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا"[2] "فعدل عنه إلى"وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ" أى: مانعتهم من إخراجهم استغناء عن ذكر المظنون بذكر علة الظن"[3].

الصورة الثالثة: تقديم الظرف وتأخيره.

يجب العلم بأن الظرف لا يخلو حاله "إما أن يكون واردا فى الإثبات، أو يكون واردا فى النفى، فإذا ورد فى الإثبات فتقديمه على عامله إنما يكون لغرض لا يحصل مع تأخيره فلا جرم التزم تقديمه؛ لأن فى تأخيره إبطالا لذلك الغرض، ثم هو على وجهين؛ أحدهما: أن يكون واردا دلالة على الاختصاص، وهذا كقوله تعالى"أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ "[4]

لأن المعنى أن الله تعالى مختص بصيرورة الأمور إليه وحده دون غيره"[5]، وافتتحت الجملة بحرف التنبيه هنا لاسترعاء أسماع الناس.

والسياق هنا يدل على أنه لا بد من تقديم المجرور لإفادة اختصاص المرجع والمآب إلى الله تعالى وحده، إذ إن تقديم الجار والمجرور دل على أن مرجع الأمور ليس إلا لله عز وجل وحده، وإن وردت الآية من غير تقديم وقيل:

---

(1) نظم الدرر للإمام البقاعى (١٩/ ٤٠٨- ٤٠٩).

(2) سورة الحشر الآية (١).

(3) التحرير والتنوير (٢٨/ ٦٦).

(4) سورة الشورى الآية (٥٣).

(5) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (٢/ ٣٩ - ٤٠).

«ترجع الأمور إلى الله» لاحتمل أن يكون مرجع الأمور إلى غير الله وهذا محال في حقه سبحانه وتعالى.

"أى: إلى الله لا إلى غيره.

والمصير: الرجوع والانتهاء، واستعير هنا لظهور الحقائق كما هي يوم القيامة فيذهب تلبيس الملبسين، ويهن جبروت المتجبرين، ويقر بالحق من كان فيه من المعاندين"[1].

وكذلك جاء قوله تعالى: "يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ"[2].

فإنه إنما قدم الظرفين ههنا في قوله "لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ" ؛ ليدل بتقديمها على اختصاص الملك، والحمد بالله عز وجل لا بغيره.

ثانيهما: أن يكون تقديمه من أجل مراعاة المشاكلة لرءوس الآى فى التسجيع.

كقوله تعالى"وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ (٢٢) إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ (٢٣)" [3]

يمكن القول بأنه قد جاء في هذا النص تقديم المعمول " إِلى رَبِّها"، لمراعاة رؤوس الآيات في السورة.

وهذا أحسن من أن لو قيل: وجوه يومئذ ناضرة ناظرة إلى ربها، والفرق بين السياقين ظاهر.

---

(1) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٥٦).

(2) سورة التغابن الآية (١).

(3) سورة القيامة الآية (٢٢– ٢٣).

ومن الملاحظ هنا أن ثمة مراعاة عنصر جمالي تستدعيه رؤوس الآيات، مع مراعاة النسق الجمالي اللفظي فى هذه الآى، وكذلك فى سائر فواصل رؤوس الآيات في القرآن.

والقرآن الكريم يقدم الألفاظ ويؤخرها حسب ما يقتضيه المقام، ووفق ما يوائم السياق، وتبعا للمعنى المقدم.

-"وأما إذا كان واردا فى النفى فقد يرد مقدما، وقد يرد مؤخرا، فإذا ورد مؤخرا أفاد النفى مطلقا من غير تفصيل، وهذا كقوله تعالى"لا رَيْبَ فِيهِ""[1].

فتأخير الظرف هنا قصد به أنه لا يلتصق بالقرآن الكريم الريب ولا يتمكن منه، إذ النفى التصق بالريب نفسه، ومن ثّم كان منتفيا من أصله، بخلاف ما لو قدم الظرف فإنه يفيد أنه مخالف لغيره من الكتب فإنه ليس فيه ريب، بل فى غيره.

وكان الأولى أن يقال فيه هدى لا ريب، إلا أنه قد خولف في الأسلوب "حيث فرض كونهم في الريب لا كون الريب فيه لزيادة تنزيه ساحة التنزيل عنه مع نوع إشعار بأن ذلك من جهتهم لا من جهته العالية ولم يقصد ههنا ذلك الإشعار كما لم يقصد الإشعار بثبوت الريب في سائر الكتب ليقتضي المقام تقديم الظرف"[2].

فالمنفي هنا كونه "متعلقاً للريب ومظنة له، ولم يقدم الظرف لأنه كان يفيد الاختصاص فيفهم أن غيره من الكتب محل الريب"[3].

---

(1) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز(٢/ ٥٠)، والآية (٢) سورة البقرة.

(2) إرشاد العقل السليم (١/ ٢٥)، والمخاطب بهذا هم كفار مكة.

(3) نظم الدرر (١/ ٨٠).

فهو ليس مما يحل القول فيه بالريب.

ومعنى الكلام حينئذ أن هذا الكتاب هو القرآن لا شك فيه أنه نزل من عند الله كما قال تعالى "الم تَنْزِيلُ الْكِتابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ"(١).

والمقصود من نفيه عن الكتاب "أنه في علو الشأن وسطوع البرهان بحيث ليس فيه مظنة أن يرتاب في حقيقته وكونه وحيا منزلا من عند الله تعالى لا أنه لا يرتاب فيه أحد أصلا"(٢).

وقد يتسائل عن السر في مجيء الظرف على هذه الصورة وعدم تقديمه على الريب هنا، ويجاب عنه بما جلاه صاحب الكشاف فيما سطره بعبارة رائعة حين قال:

" فإن قلت: فهلا قدّم الظرف على الريب، كما قدّم على الغول في قوله تعالى:

(لا فِيها غَوْلٌ) ؟ قلت: لأنّ القصد في إيلاء الريب حرف النفي، نفى الريب عنه، وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب، كما كان المشركون يدّعونه، ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد، وهو أنّ كتابا آخر فيه الريب لا فيه، كما قصد في قوله: (لا فِيها غَوْلٌ) تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هى، كأنه قيل: ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة"(٣).

---

(١) سورة السجدة الآية (٢).

(٢) إرشاد العقل السليم (١/ ٢٥)، وينظر تفسير القرآن العظيم (١/ ٧٣).

(٣) الكشاف (١/ ٣٤).

فقد أراد الله تعالى فى هذا الترتيب العجيب والنسق البديع لهذه الجملة أن ينفى الريب عن القرآن الكريم ، ولو عكس فقال لا فيه ريب لأدى ذلك إلى نفى الريب عن القرآن الكريم، وإثباته فى نفس الوقت لغيره مما عداه من الكتب السماوية الأخرى، وهو غير مقصود.

الصورة الرابعة: الحال.

مما يجب أن يعلم أن الحال حين ما يقدم على معموله فإنه يفيد أنه جاء على هذه الصفة أو تلك الحالة مختصا بها من غيرها من سائر الصفات.

كما تقول جاء ضاحكا زيد، بخلاف ما لو قلت: جاء زيد راكبا، فإنه كما يجوز أن يجىء على هذه الصفة فإنه يجوز مجيئه على غيرها من الصفات فافترقا.

ومن هذا القبيل قوله تعالى" فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا "[١].

وانتصب "ضَاحِكًا" على الحال، أى: شارعا عليه السلام في الضحك.

فـ" تبسم تعجب. والتبسم أضعف حالات الضحك فقوله:" ضَاحِكًا " حال موكدة لـ " فَتَبَسَّمَ " وضحك الأنبياء التبسم"[٢].

فقوله تعالى" ضَاحِكًا" حال "مؤكدة لعاملها معنى فقط واللفظ مختلف نحو « فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا" فضاحكا حال من فاعل تبسم وهي مؤكدة لعاملها معنى فقط لأن التبسم نوع من الضحك واللفظ مختلف"[٣].

---

(١) سورة النمل جزء من الآية (١٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٤٣).

(٣) إعراب القرآن وبيانه (٧/ ١٨٧– ١٨٨).

وكقوله تعالى "خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ "[١].

فقوله عز وجل " خُشَّعًا " حال وقد تقدم هنا على عاملها، وهو الفعل الذى نصبها.

" وانتصب "خُشَّعًا" أبصارهم على الحال من الضمير المقدر في "يَدْعُ الدَّاعِ"[٢] وإما من ضمير "يَخْرُجُونَ" مقدما على صاحبه"[٣].

"والخشوع في البصر الخضوع والذلة، وأضاف الخشوع إلى الأبصار لأن العز والذل يتبين فيها يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر أى: يخرجون من القبور "[٤].

وكقوله تعالى " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"[٥].

فقوله تعالى " كَافَّةً" حال تقدم على صاحبها المجرور باللام وهو قوله عز وجل" لِلنَّاسِ".

ومن المعلوم أن كافة من ألفاظ العموم "ووقعت هنا حالا من «الناس» مستثنى من عموم الأحوال وهي حال مقدمة على صاحبها المجرور بالحرف"[٦].

---

(١) سورة القمر الآية (٧).
(٢) سورة القمر الآية (٦).
(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٧٨).
(٤) فتح القدير (٥/ ١٤٦).
(٥) سورة سبأ الآية (٢٨).
(٦) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٩٨).

والمعنى أى: "وما أرسلناك إلا للناس كافة أي عامة، ففي الكلام تقديم وتأخير"[١].

فقد أخبرت الآية برسالة النبي صلى الله عليه وسلم "تشريفا له بتوجيه هذا الإخبار بالنعمة العظيمة إليه، ويحصل إبطال مزاعم المشركين بطريق التعريض"[٢].

وقدم الحال هنا "للاهتمام، وهذه إحدى الخصال التي خص بها محمد صلى الله عليه وسلم من بين الأنبياء"[٣].

فعلى الدارس أو الباحث أن يوجه نظره إلى مراعاة الترتيب الطبيعي في المعاني وألفاظها التابعة لها، دون أدنى خلل أو اضطراب في مراعاة السياق، وذلك لأجل الفهم الصحيح بعيد عن التكلف والغموض.

الصورة الخامسة: الاستثناء.

هذه إحدى صور تقديم المعمول، والمقصد هنا تقديم الاستثناء، ومن المعلوم أنه يقصر الحكم على موصوفه فقط، ولا يمكن أن يتعداه إلى غيره.

ومما يجب أن يعلم أنه فى الاستثناء يؤخّر المقصور عليه مع أداة الاستثناء، والحصر معناه "نفى غير المذكور وإثبات المذكور يعبر عنه بما وإلا أو بإنما، فإذا قلت: ما ضربت إلا زيدا، كنت نفيت الضرب عن غير زيد وأثبته لزيد"[٤].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٣٠٠).
(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٩٧).
(٣) المحرر الوجيز (٤/ ٢٢٠).
(٤) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (١/ ٣٨٥).

وكقولك "ما ضرب إلا عمرا زيد، وما ضرب عمرا إلا زيد. والمراد: ما ضرب زيد إلا عمرا احترازا من قولنا: ما ضرب عمرا إلا زيد، لغير هذا المعنى؛ فإنه ليس قليلا، وإنما كان هذا النوع قليلا؛ لاستلزامه قصر الصفة قبل تمامها كالضرب الصادر من زيد فى: ما ضرب زيد إلا عمرا والواقع على عمرو فى: ما ضرب عمرا إلا زيد"(١).

وكذلك فى نحو قولك: ما ضربت إلا زيدا أحدا، فإنك إذا قدمته فإنه يفيد الحصر، وأنه لا مضروب سواه، وأيضا لو قلت: ما ضربت أحدا إلا زيدا؛ فالصورتان دالتان على حصر الضرب في زيد، وذلك لما كان الاستثناء متصلا بالمفعول.

فالتقديم هنا يفيد الحصر بمفهوم الكلام ومعناه، ومن هنا يعلم أن صاحب الذوق السليم إذا تأمل في الكلام الذي فيه التقديم المذكور فَهِم الحصر، وإن لم يعرف أن التقديم في اصطلاح البلغاء يفيد الحصر.

(١) نفس المصدر (١/ ٤١٣).

المبحث الثانى: ما يجوز تقديمه ولو أخر لم يفسد معناه.

قال تعالى " وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ"(١).

وقال تعالى " وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ"(٢).

فقد وقع في آية سورة يونس – عليه السلام– بتقديم الأرض على السماء، وجاء على غير ذلك في سورة سبأ بتقديم السماء على الأرض.

فما السر في ذلك؟.

يمكن القول بأن السياق في سورة يونس في الحديث عن الناس وأحوالهم، ومعيشتهم وأعمالهم وكسبهم، فإنهم من أهل الأرض وأنه لا يخفى على الله تعالى منها شيء، ولهذا حسن التعبير عن ذلك بقوله تعالى" لَا يَعْزُبُ"، وهو أوفق بالمقام.

فهى مسوقة لبيان شأن أهل الأرض بدليل قوله تعالى"وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً".

فقدم ذكر الأرض هنا تنبيها على ذلك.

---

(١) سورة يونس الآية (٦١).

(٢) سورة سبأ الآية (٣).

وكذلك " لأنها محل استقرار العالم فهم يشاهدون ما فيها من قرب"[١]. والمراد بالأرض والسماء "هنا العالم السفلي والعالم العلوي. والمقصود تعميم الجهات والأبعاد بأخصر عبارة"[٢].

وقد أحسن صاحب الكشاف في إبراز هذا الوجه البلاغى وتجليته في صورة ظاهرة، وإليك ما قاله.

" فإن قلت: لم قدّمت الأرض على السماء، بخلاف قوله في سورة سبأ "عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ"[٣]؟ قلت:

حق السماء أن تقدم على الأرض، ولكنه لما ذكر شهادته على شئون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم، ووصل بذلك قوله "لا يَعْزُبُ عَنْهُ" لاءم ذلك أن قدّم الأرض على السماء على أنّ العطف بالواو حكمه حكم التثنية "[٤].

أما في سورة سبأ بتقديم السماء على الأرض فيقال بأن السياق يوافقه، والمقام اقتضاه، وذلك بأن السماء فيها من الآيات البينات الدالة على وحدانية الله تعالى، وعظيم قدرته المطلقة، وما تشتمل عليه من شمس وقمر ونجوم، وكواكب، واستغنائها عن العُمد، وبالجملة فيها من العجائب التى لا توجد في الأرض، فلأجل ذلك اختص السياق بهذا التقديم.

فقد ذكر إحاطة علمه وشموله لكل المعلومات، فلا شك صدر بالسموات قبل الأرض

---

(١) فتح القدير (٢/ ٥١٩).
(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٢١٤).
(٣) سورة سبأ الآية (٣).
(٤) الكشاف (٢/ ٣٥٥).

لاشتمالها على لطائف الحكمة وعجائب الصنع، كما قال تعالى"وكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ"(١).

- قال تعالى " قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا"(٢).

وقال تعالى " يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ"(٣).

يتراءى للناظر في هاتين الآيتين تقديم الإنس على الجن تارة، وتارة بتقديم الجن.

والتساؤل هنا عن السر فى ذلك، وما السر فى تخصيص كل سياق بما ورد فيه؟.

يمكن الجواب عنه :

بأن ما في سورة الإسراء الشريفة جاء في سياق الحديث عن التحدى بالقرآن العظيم المنعوت بما لا تدرك كنهه العقول من النعوت الجليلة من البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى وإظهار العجز الواضح من الثقلين عن الإتيان بمثله، ولا ريب في أن مدار التحدى على لغة القرآن ونظمه، وبلاغته، وسر براعته وفصاحته، وحسن بيانه.

هذا وإن كان التحدي في الأصل "إنما هو للإنس والجن الذين أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم، لهدايتهم إلى الصراط المستقيم"(٤).

---

(١) سورة الأنعام الآية (٧٥).

(٢) سورة الإسراء الآية (٨٨).

(٣) سورة الرحمن الآية (٣٣).

(٤) التفسير الوسيط (٨/ ٤٢٥).

إلا أن في هذا المقام الإنس هم المقدمون، إذ إنهم أصحاب البلاغة، وأرباب الفصاحة، ومن ثَمّ فإتيان هذا منهم أولى وأجدر.

" وتخصيص الثقلين بالذكر لأن المنكر لكونه من عند الله تعالى منهما لا من غيرهما والتحدي إنما كان معهما وإن كان النبي صلّى الله عليه وسلّم مبعوثا إلى الملك كما هو مبعوث إليهما لا لأن غيرهما قادر على المعارضة فإن الملائكة عليهم السلام على فرض تصديهم لها وحاشاهم إذ هم معصومون لا يفعلون إلا ما يؤمرون عاجزون كغيرهم"(١).

"وهذا تنويه بشرف القرآن فكان هذا التنويه امتنانا على الذين آمنوا به وهم الذين كان لهم شفاء ورحمة، وتحديا بالعجز على الإتيان بمثله للذين أعرضوا عنه وهم الذين لا يزيدهم إلا خسارا"(٢).

وهذه الآية مفحمة للمشركين ومن على شاكلتهم في التحدي بإعجاز القرآن الأبدى.

"وقال– سبحانه–: "لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ" فأظهر في مقام الإضمار، ولم يكتف بأن يقول:

لا يأتون به، لدفع توهم أن يتبادر إلى الذهن أن له مثلا معينا، وللإشعار بأن المقصود نفى المثل على أى صفة كانت هذه المثلية، سواء أكانت في بلاغته، أم في حسن نظمه، أم في إخباره عن المغيبات، أم في غير ذلك من وجوه إعجازه"(٣).

---

(١) روح المعانى (٨/ ١٥٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٠٢).

(٣) التفسير الوسيط (٨/ ٤٢٥).

أما في سورة الرحمن بتقديم الجن على الإنس لأن السياق يناسبه، إذ الحديث عن النفاذ في أقطار السماوات والأرض، ولا جرم أن هذا هو مجال الجن فقط دون غيرهم، فهم الأقدر على ذلك لسرعة حركتهم التى لا يمكن الاطلاع على حقيقتها، وبلوغهم أن يتخذوا مقاعد في السماء للاستماع، قال تعالى " وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا "[1].

وكذلك " لكون خلق أبيهم متقدما على خلق آدم، ولوجود جنسهم قبل جنس الإنس"[2].

فقد خوطبا باسم "جنسهما لزيادة التقرير ولأن الجن مشهورون بالقدرة على الأفاعيل الشاقة فخوطبوا بما ينبىء عن ذلك لبيان أن قدرتهم لا تفي بما كلفوه"[3].

وفائدة ذكر السماوات والأرض "لتحقيق إحاطة الجهات كلها تحقيقا للتعجيز، أى: فهذه السماوات والأرض أمامكم فإن استطعتم فاخرجوا من جهة منها فرارا من موقفكم هذا، وذلك أن تعدد الأمكنة يسهل الهروب من إحدى جهاتها"[4].

---

(1) سورة الجن الآية (٩).

(2) فتح القدير (٥/ ١٦٥).

(3) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٨١).

(4) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٥٩).

– قال تعالى"وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ "(١).

تحكى هذه الآية الكريمة عن باهر قدرة الله تعالى في خلقه كل أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد، فمنهم من يمشى على بطنه كالحيات، ومنهم من يمشى على رجلين كالإنسان، ومنهم من يمشى على أربع كالأنعام وغيرها.

"وإظهار اسم الجلالة دون الإضمار للتنويه بهذا الخلق العجيب.

واختير فعل المضي للدلالة على تقرير التقوى بأن هذا شأن متقرر منذ القدم مع عدم فوات الدلالة على التكرير حيث عقب الكلام بقوله"يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ"(٢).

وتذكير الضمير في قوله تعالى " فَمِنْهُمْ " "لتغليب العقلاء والتعبير عن الأصناف بكلمة من ليوافق التفصيل الإجمال "(٣).

والملاحظ أن النسق هنا جاء على ترتيب عجيب فقدم من يمشى على بطنه، وثنى بمن يمشى على رجلين ثم من يمشى على أربع.

وإنما قدم الماشى على بطنه هنا وكان له من الصدارة ما له؛ إذ إنه لما صدر الآية بالإخبار على جهة المدح بأنه خالق لكل دابة من الماء، فقدم

---

(١) سورة النور الآية (٤٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٦٥).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٨٥)، وينظر جامع البيان (١٩/ ٢٠٣).

فى الذكر من يمشى على بطنه؛ لأنه أدل على باهر القدرة وعجيب الصنعة من غيره من المخلوقات.

وثنى بمن يمشى منهم على رجلين؛ لأنه أدخل فى الاقتدار ممن يمشى على أربع، ولأن من جملتهم بنى آدم، فخصهم بالذكر لما لهم من مزيد الشرف على سائر الحيوانات، ثم ذكر من يمشى على أربع ليكون أتم في الخلق، فيكون التقديم على هذا النظم من باب تقديم الأعجب فى القدرة المطلقة فالأعجب.

وكذلك للترتيب فى قوة دلالتها "على عظم القدرة لأن الماشي بلا آلة مشي متمكنة أعجب من الماشي على رجلين"(١).

وقد يتساءل: لِمّ لَم يذكر الذي يمشي على أكثر من أربع؟

فيجاب: "لأنه في رأي العين كالذي يمشي على أربع، وقيل: لأنه يعتمد في المشي على أربع"(٢).

ومن الملاحظ أن التقديم هنا له وجه بليغ في الإعجاز، وأظهر عن لثام السياق القرآنى الذى فاق غيره، وإذا تمهد لك أيها القارىء فدونك أنه إذا عكس الترتيب هنا وجاء على خلاف ما أتى عليه من تقديم من يمشى على أربع ثم ثنى بالماشى على رجلين؛ ثم ختمه بالماشى على بطنه "لكان له وجه فى الحسن، وعلى هذا يكون تقديمه من باب الأفضل فالأفضل"(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٦٥).

(٢) زاد المسير (٣/ ٣٠١).

(٣) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (٢/ ٤١).

وقال تعالى " وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَأَناسِيَّ كَثِيراً"(١).

جاء السياق القرآنى هنا بتقديم عجيب، ونسق بديع روعى فيه الترتيب الواقع في الحياة.

والملاحظ يرى أنه قدم إحياء الأرض إذ إنه يستتبع نزول الماء من السماء وذلك لإطعام الناس والحيوان، ففيها معاشهم.

فهى سبب فى حياة الخلق، فلأجل هذا قدمت لاختصاصها بهذه الفضيلة، ثم جاء بعده وقدم حياة الأنعام على حياة الناس، لما فيها من المعاش للخلق والقوام لأحوالهم، فراعى فى التقديم ما به قوام العباد في الحياة، إذ أن حياتهم بحياة تلك الأرض وهذه الأنعام، فقدم ما هو السبب في ذلك.

وبالجملة فتقديم ذكر الأنعام على الأناسى "اقتضاه نسج الكلام"(٢).

"فإن قلت: لم خص الأنعام من بين ما خلق من الحيوان الشارب؟ قلت: لأن الطير والوحش تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب، بخلاف الأنعام: ولأنها قنية الأناسى، وعامة منافعهم متعلقة بها، فكان الإنعام عليهم بسقى أنعامهم كالإنعام بسقيهم"(٣).

فسياق الآيات الكريمة كما هو واضح "للدلالة على عظم القدرة فهو لتعداد أنواع النعمة والأنعام حيث كانت قنية للإنسان وعامة منافعهم ومعايشهم

---

(١) سورة الفرقان الآية (٤٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٤٩).

(٣) الكشاف (٣/ ٢٨٥).

منوطة بها قدم سقيها على سقيهم كما قدم عليها إحياء الأرض فإنه سبب لحياتها وتعيشها"[١].

ولعل الاقتصار على ذكر الأنعام والأناسي "لأنهما موقع المنة، فالأنعام بها صلاح حال البادين بألبانها وأصوافها وأشعارها ولحومها، وهي تشرب من مياه المطر من الأحواض والغدران"[٢].

ويمكن في غير القرآن تقديم سقى الخلق على الأنعام، وذلك لأجل أنهم اختصوا به، وحينئذ نلاحظ عدم الإخلال بالمعنى المقصود من الإتيان به.

– قال تعالى " وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ"[٣].

وقال تعالى" وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ" [٤].

يتراءى للناظر في هاتين الآيتين بتقديم لفظ " رجل" تارة، وتأخيره تارة أخرى.

والتساؤل هنا عن السر فى ذلك، وما السر فى تخصيص كل سياق بما ورد فيه؟.

يمكن الجواب عنه :

بأن ما في سورة القصص الشريفة جاء في سياق الحديث عن ما فيه أعداء موسى عليه السلام من الائتمار، وإيقاع الضرر به، ومجيء من لا يعرفه

(١) إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٢٤).
(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٤٩).
(٣) سورة القصص الآية (٢٠).
(٤) سورة يس الآية (٢٠).

موسى من مكان غير مجاور له، فأعلمه من أمر هؤلاء وما اختلجت به نفوسهم.

فهو على الأصل في التقديم، ولم يكن على الإيمان بما جاء به موسى عليه السلام.

و"ظاهر النظم أن الرجل جاء على حين محاورة القبطي مع موسى فلذلك انطوى أمر محاورتهما إذ حدث في خلاله ما هو أهم منه وأجدى في القصة، والظاهر أن أقصى المدينة هو ناحية قصور فرعون وقومه فإن عادة الملوك السكنى في أطراف المدن توقيا من الثورات والغارات لتكون مساكنهم أسعد بخروجهم عند الخوف. وقد قيل: الأطراف منازل الأشراف. ... وبهذا يظهر وجه ذكر المكان الذي جاء منه الرجل وأن الرجل كان يعرف موسى"[1].

أما في سورة يس فكان التقديم مناسبا للسياق الوارد فيه، وذلك لما سبقه من آيات جاءت في سياق الحديث عن أصحاب القرية بالإسراف في عصيان رسل عيسى عليه السلام، والغلو في الكفر والإصرار على تكذيب الرسل.

وأن رجلا آمن بدعوة هؤلاء الرسل، وجاء ينصح قومه، وقد أتى من مكان بعيد عن الناس واجتماعهم، فالتقديم حينئذ زيادة توبيخ لأهل القرية في فعلهم القبيح وتشنيع عليهم، وهم قد شاهدوا من الرسل ما لم يشاهده الرجل الذى كان في أقصا المدينة، وعلى الرغم من ذلك فلم ييأس ونصح لهم، وعليه فتقدم في السياق ما به يكون التوبيخ أعظم، وأوقع في النفوس.

([1]) التحرير والتنوير (٢٠/ ٩٥) باختصار.

فقد قدم مكان "المجيء على فاعله بياناً لأن الدعاء نفع الأقصى ولم ينفع الأدنى فقال: " وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى " أى: أبعد، بخلاف ما مر في سورة القصص؛ ولأجل هذا الغرض عدل عن التعبير بالقرية"[١].

وكذلك "لاشتمال ما قبله من سوء معاملة أصحاب القرية الرسل وإصرارهم على تكذيبهم فكان مظنة التتابع على مجرى العبارة تلك القرية ويبقى مخيلا في فكره أكانت كلها كذلك أم كان فيها.. على خلاف ذلك"[٢].

وقوله تعالى" " قَالَ " استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية مجيئه ساعيا كأنه قيل فماذا قال عند مجيئه فقيل قال " يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ "[٣] تعرض لعنوان رسالتهم حثا لهم على اتباعهم كما أن خطابهم بـ" يَا قَوْمِ " لتأليف قلوبهم واستمالتها نحو قبول نصيحته"[٤]

إذا تمهد لك أيها القارىء فإليك قول صاحب التحرير والتنوير في إبراز هذا الوجه هنا حينما قال:" وفائدة ذكر أنه جاء من أقصى المدينة الإشارة إلى أن الإيمان بالله ظهر في أهل ربض المدينة قبل ظهوره في قلب المدينة.

لأن قلب المدينة هو مسكن حكامها وأحبار اليهود وهم أبعد عن الإنصاف والنظر في صحة ما يدعوهم إليه الرسل، وعامة سكانها تبع لعظمائها لتعلقهم بهم وخشيتهم بأسهم بخلاف سكان أطراف المدينة فهم أقرب إلى

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ١٠٩).

(٢) البرهان فى علوم القرآن (٣/ ٢٨٤)، ويقصد ما سبق من الآيات فى الحديث عن ما وقع من قبلهم تجاه الرسل.

(٣) سورة يس الآية (٢٠).

(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٦٣).

الاستقلال بالنظر وقلة اكتراث بالآخرين لأن سكان الأطراف غَالِبُهُمْ عَمَلَةُ أَنْفُسِهِمْ لِقُرْبِهِمْ مِنَ الْبَذْوِ.

وبهذا يظهر وجه تقديم من أقصا المدينة على رجل للاهتمام بالثناء على أهل أقصى المدينة. وأنه قد يوجد الخير في الأطراف ما لا يوجد في الوسط، وأن الإيمان يسبق إليه الضعفاء لأنهم لا يصدهم عن الحق ما فيه أهل السيادة من ترف وعظمة إذ المعتاد أنهم يسكنون وسط المدينة، ...

وأما قوله تعالى في سورة القصص "وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى "[1] فجاء النظم على الترتيب الأصلي إذ لا داعي إلى التقديم إذ كان ذلك الرجل ناصحا ولم يكن داعيا للإيمان" [2].

– قال تعالى"ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ"[3].

بالنظر هنا يمكن لنا أن نقول بأنه قدم الظالم لنفسه للإيذان بكثرتهم، وأن معظم الناس على ظلم نفسه، ثم ثنى بعدهم بالمقتصدين لأنهم قليل بالإضافة إلى الظالمين، ثم ثلث بالسابقين وهم أقل من المقتصدين، فلا جرم قدم الأكثر، ثم بعده الأوسط، ثم ذكر الأقل آخرا لما ذكر.

جاء في الكشاف:"

---

(1) سورة القصص الآية (٢٠).

(2) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٦٥ – ٣٦٦) باختصار.

(3) سورة فاطر الآية (٣٢).

"فإن قلت: لم قدم الظالم؟ ثم المقتصد ثم السابق؟ قلت: للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقون أقل من القليل. وقرئ: جنة عدن على الإفراد، كأنها جنة مختصة بالسابقين"[١].

فهو سبحانه تارة "يبدأ بالأدنى وتارة بالأعلى بحسب ما يقتضيه الحال"[٢].

والناظر يرى حسن البراعة في التفصيل بعد التعميم، وبيان أن العباد درجات.

"ولما أريد تعميم البشارة مع بيان أنهم مراتب فيما بشروا به جيء بالتفريع في قوله:

"فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ" إلى آخره، فهو تفصيل لمراتب المصطفين لتشمل البشارة جميع أصنافهم ولا يظن أن الظالم لنفسه محروم منها، فمناط الاصطفاء هو الإيمان والإسلام وهو الانقياد بالقول والاستسلام.

وقدم في التفصيل ذكر الظالم لنفسه لدفع توهم حرمانه من الجنة وتعجيلا لمسرته"[٣].

ولو جاء السياق على عكس هذا النسق هنا فقدم السابق لشرفه على الكل، ثم ثنى بالمقتصد لأنه أشرف ممن ظلم نفسه لم يكن فيه إخلال بالمعنى حينئذ، ومن ثَمّ روعى فى ذلك تقديم ما حقه التقديم.

ففيه التدرج من الأدنى إلى الأعلى.

---

(١) الكشاف (٣/ ٣١٦).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٥٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣١١- ٣١٢).

وهكذا تبين لنا إعجاز القرآن الكريم في سر من أسراره التى لا تنتهى، وبالتقديم والتأخير اتضح لنا سر اختصاص السياق القرآنى بما ورد في مواطنه العديدة.

الخاتمة:

الحمد لله على ما أنعم علىّ من شمول رحمته، وبعد فإن أعظم ما تسمو إليه الهمم، وتتطلع إليه النفوس، وتشتاقه القلوب وتبحثه العقول، هو النظر فى كتاب الله تعالى.

وبعد يبقى أن أشير إلى أن موضوع التقديم والتأخير من الموضوعات التى تناولها الدارسون بالعرض والتحليل للوقوف على مدى شجاعة اللغة العربية في الخروج على المعهود الذى جاء في تركيبهم، ولم يكن ذلك الخروج ضربا من الخبط ، ولكن كان له ما يبرره، وكانت له دواع اقتضاها التعبير، أو المقام، أو السياق الذى جاء فيه التغيير، ومنها التقديم والتأخير.

وبعد أن عشت فى رحاب هذا البحث بفضل الله تعالى، يحسن بى أن أشير إلى بعض **النتائج، بل أهمها، وهى ما يأتى:**

١ – يمثل التقديم والتأخير في بناء الجملة ركيزة مهمة في بلاغتها وتحقيق مرادها.

٢ – التقديم والتأخير له أثر عظيم في روعة الأسلوب والعبارات وبلاغتها المؤثرة والمعبرة.

٣ – جاء التقديم والتأخير لغرض اقتضاه السياق، وهو أوفق بالمقام، وليكون أقرب إلى الأفهام، وكل ذلك وفق حكمة بالغة.

٤ – كل لفظة في السياق القرآنى جاءت لأجل غرض معين، ووضعت حتى تؤدى معنى لا تؤديه نظيرتها، ولا تؤديه نفس اللفظة إذا نقلت من موضعها الذى اختصت به بالتقديم والتأخير، ولو حدث هذا لفسد المعنى وانتفى الاعجاز.

٥ – فيه إصابة للمقصود من غرض المتكلم أو المتحدث لأجل تحقيق التواصل بينه وبين المخاطب.

أما التوصيات فهى كما يلى:

١ – أوصى بضرورة معرفة المراد بالتقديم والتأخير لمن أراد تفسير كتاب الله تعالى.

٢ – ضرورة دراسة علوم البلاغة لأجل اكتشاف قيمات لعناصر جمالية بلاغية التى ورد عليها القرآن الكريم.

٣ – ضرورة دراسة مقتضيات الأحوال والمقامات في التفسير، وبخاصة في السياق القرآنى إذ إنه يعين على أداء معانيه في أوضح صورة.

٤ – العمل على نشر كتب التراث في البلاغة وغيرها من الفنون حتى يتمكن الدارسون والباحثون من الفهم التام، والوعى الكامل لكافة العلوم الأخرى.

المراجع والمصادر

١ – أساس البلاغة أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) تحقيق: محمد باسل عيون السود. الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م.

٢ – أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك.عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ).المحقق: يوسف الشيخ محمد البقاعي.الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٣ – إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٤ – البحر المحيط في التفسير. المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ).المحقق: صدقي محمد جميل.الناشر: دار الفكر – بيروت.الطبعة: ١٤٢٠ هـ.

٥ – البرهان في علوم القرآن.أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ).المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم.الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م.الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.

٦ – البلاغة العربية.عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥هـ). الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت.الطبعة: الأولى،١٤١٦هـ-١٩٩٦ م.

٧ – تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم.أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر التنوخي المعري (المتوفى: ٤٤٢هـ)تحقيق: الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو. الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة.الطبعة: الثانية ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

٨ – التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي. ت (١٣٩٣هـ)الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس.سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.

٩– تفسير القرآن العظيم (ابن كثير).أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ).المحقق: محمد حسين شمس الدين.الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت.الطبعة: الأولى – ١٤١٩ هـ.

١٠ – التفسير الكبير. أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

١١- التفسير الوسيط للقرآن الكريم محمد سيد طنطاوي.الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة. الطبعة: الأولى عام ١٩٩٨م.

١٢ – جامع البيان في تأويل القرآن. محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ).المحقق: أحمد محمد شاكر.الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م.

١٣ – جامع العلوم في اصطلاحات الفنون.القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري (المتوفى: ١٢هـ).عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص.

الناشر: دار الكتب العلمية – لبنان / بيروت.الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.

١٤ – جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع.أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (المتوفى: ١٣٦٢هـ).ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي.الناشر: المكتبة العصرية، بيروت.

١٥ – الحدود في علم النحو.أحمد بن محمد بن محمد البجائي الأُبَّذيّ، شهاب الدين الأندلسي (المتوفى: ٨٦٠هـ).المحقق: نجاة حسن عبد الله نولي.الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.الطبعة: العدد ١١٢ – السنة ٣٣ – ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

١٦ – خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني.محمد محمد أبو موسى. الناشر: مكتبة وهبة.الطبعة: السابعة.

١٧ – الدر المصون في علوم الكتاب المكنون. أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ)المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط.الناشر: دار القلم، دمشق.

١٨ – دلائل الإعجاز في علم المعاني.أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ).المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر.الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة.الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

١٩ – دليل الطالبين لكلام النحويين.مرعي بن يوسف بن أبى بكر بن أحمد الكرمى المقدسي الحنبلى (المتوفى: ١٠٣٣هـ). الناشر: إدارة المخطوطات والمكتبات الإسلامية – الكويت.عام النشر: ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م.

٢٠ – زاد المسير في علم التفسير.جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ) المحقق: عبد الرزاق المهدي.الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت.الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ.

٢١ – سير أعلام النبلاء. شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى : ٧٤٨هـ)المحقق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط.الناشر : مؤسسة الرسالة.الطبعة : الثالثة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.

٢٢ – شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك.ابن عقيل ، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري (المتوفى : ٧٦٩هـ).المحقق : محمد محيي الدين عبد الحميد. الناشر : دار التراث – القاهرة، دار مصر للطباعة ، سعيد جودة السحار وشركاه.الطبعة : العشرون ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م.

٢٣ – شرح الكافية الشافية.محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين (المتوفى: ٦٧٢هـ).المحقق: عبد المنعم أحمد هريدي.

الناشر: جامعة أم القرى مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي كلية الشريعة والدراسات الإسلامية مكة المكرمة.الطبعة: الأولى. بدون.

٢٤ – الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار.الناشر: دار العلم للملايين – بيروت الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.

٢٥ – الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز.يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد بالله (المتوفى: ٧٤٥هـ).الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت.الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.

٢٦ – علم المعاني.عبد العزيز عتيق (المتوفى: ١٣٩٦ هـ).الناشر: دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م.

٢٧ – علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع».أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ) بدون.

٢٨ – كتاب العين.أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ).المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي.الناشر: دار ومكتبة الهلال.

٢٩ – الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية.أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ)المحقق: عدنان درويش – محمد المصري.

الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت.

٣٠ – اللباب في علوم الكتاب.أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ)المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض.الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان.الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م.

٣١ – لسان العرب. محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)الناشر: دار صادر – بيروت.الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ.

٣٢ – معجم اللغة العربية المعاصرة.د أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل.الناشر: عالم الكتب.الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.

٣٣ – مقاييس اللغة. أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)المحقق: عبد السلام محمد هارون.الناشر: دار الفكر.عام النشر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٣٤ – المنهاج الواضح للبلاغة.المؤلف: حامد عونى.الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث.بدون.

٣٥ – وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ).المحقق: إحسان عباس.الناشر: دار صادر – بيروت.الطبعة: ١، ١٩٩٤م.

٣٦ – نظم الدرر في تناسب الآيات والسور.إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي. ت (٨٨٥هـ)الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.